حماس من المهد إلى اللحد

ماثيو ليفيت

في فصلية الشرق الأوسط التابعة لمعهد واشنطون لسياسة الشرق الأدنى في عدد شتاء ٢٠٠٤م، كتب ماثيو ليفيت، وهو محلل مخابرات سابق في قسم مكافحة الإرهاب داخل المباحث الفيدرالية الأمريكية هذه الدراسة الملخصة، وهي جزء من كتاب يُعدّه حالياً عن حماس بعنوان (إرهاب التمويل تحت غطاء الإحسان).

ويقول في هذه الدراسة:

إنه على مر السنوات الثلاث الأخيرة؛ كشفت الولايات المتحدة عن كيفية قيام المجموعات الإرهابية بصورة منتظمة بإخفاء نشاطاتهم خلف مؤسسات وجهات خيرية واجتماعية وسياسية، وقد اكتشف المحققون الدور الحيوي الذي تمارسه الجماعات الخيرية؛ سواء المؤسسات أو الأفراد المتبرعون، وذلك بعد مواجهة الأخطار التي تمثلها القاعدة والعديد من تنظيماتها التابعة لها، والتي تمد بالدعم المالي للمؤسسات الخدمية الاجتماعية. وهذه المنظمات المتشابهة تقوم بالإمداد بالمتطوعين واللوجستيين، كما تمد الإرهابيين بغطاء شرعي.

وكان من ضمن أجزاء المعركة ضد الإرهاب إغلاق تلك المؤسسات في إطار الجهود الدولية، ولم يعد أحد من الخبراء يُخدع بالكيانات الوهمية التي وضعتها المؤسسات الإرهابية، وفي الواقع إن العديد من تلك الواجهات قامت السلطات بالقبض على مسؤوليها، وجمّدت أصولها، وأغلقت مكاتبها.

ولكن هناك إحدى المنظمات الإرهابية التي لا تزال تستفيد من التفرقة الظاهرية التي يقيمها بعض المحللين بين أجنحتها «العسكرية» و«السياسية» و«الاجتماعية»، وهي حركة المقاومة الإسلامية «حماس». والمحللون الذين يضعون تلك التفرقة دائماً ما يعوّلون على «الأعمال الخيرية» لحركة حماس، وكأن تلك الأنشطة لا علاقة لها بالهجمات على المدنيين، والهجمات الانتحارية التي أصبحت علامة مسجلة لتلك المنظمة. ولأن هناك مفهوماً يفيد بأن حماس لديها «أجنحة» مستقلة؛ فقد سُمح للجناح السياسي والجهات الخيرية الأخرى بالعمل بانفتاح وحرية في العديد من العواصم الأوروبية والشرق أوسطية.

وتلك التفرقة قد تكون مناسبة لبعض الحكومات ولمؤيدي القضية الفلسطينية، ومن المؤكد أنها مناسبة لحماس أيضاً ، ولكن تلك التفرقة تناقضها بصورة كبيرة نتائج التحقيقات المختلفة للمحققين والصحفيين والمحللين.

وهذا المقال يقوم بتجميع وجهات النظر تلك، والأدلة التي تثبت العلاقة بين الخدمات الاجتماعية والإرهاب في حركة حماس، تلك الدلائل تُظهر جلياً أنّ التفرقة ما بين أجنحتها المختلفة ليست فقط تفرقة زائفة، ولكنها أيضاً تُشجّع وتُحرّض على كل أشكال الإرهاب الذي تقوم به حماس، والذي قوّض كل المبادرات السلمية السابقة.

ويتساءل الكاتب: هل لدى حماس «أجنحة»؟

إن أقوى رفض لتلك الفكرة قد جاء من داخل حركة حماس نفسها، فقد رفض قائد حركة حماس السابق الشيخ أحمد ياسين فكرة أن حماس لديها أجنحة غير متناسقة؛ قائلاً : «لا يمكننا فصل أي جناح عن جسد حماس، فإذا ما فعلنا ذلك فإن الجسد لا يمكن أن يطير، إن حماس جسد واحد». وعادة ما اعترف قادة حماس أنفسهم بصورة متكررة عن الدور المركزي الذي يمارسه القادة «السياسيون» في عملية صنع القرارات السياسية، والتي وصفها الزعيم العسكري لحركة حماس صلاح شحاده (الذي قتلته إسرائيل) بتلك الطريقة: «إن الجهاز السياسي له سيادة فوق الجهاز العسكري، فالقادة السياسيون لهم الأسبقية في اتخاذ القرار قبل العسكريين، بدون التدخل في العمليات العسكرية».

وقد أشار قائد آخر وهو عبد العزيز الرنتيسي بدقة إلى علو القادة السياسيين في يوليو ٢٠٠١م عندما أخبر وكالة رويترز: «إن القيادة السياسية في حركة حماس قد أطلقت يد كتائب عز الدين القسام لتفعل ما تريده ضد إخوان القردة والخنازير [أي اليهود]» طبقاً لمقال نشرته رويترز، «إن الجناح السياسي لحركة حماس يقرر السياسة العامة للحركة».

وقد تطابقت رؤى أولئك الذين اعتبروا تلك الأدلة؛ فإسرائيل طالما اعتبرت أن حركة حماس بها تكامل رأسي في القيادة، وطبقاً لوثائق محكمة أعدتها حكومة إسرائيل في قضية تسلم قائد لحركة حماس من الولايات المتحدة عام ١٩٩٥م؛ فإن «الجناح السياسي يعمل على أنه أعلى قيادة للحركة في منظمة حماس، ويضع السياسات والتوجيهات فيما يتعلق بنشاطات حركة حماس، وإلى جانب الوظائف الأخرى للجناح السياسي؛ فإنه يتحمل مسؤولية توجيه وتنسيق العمليات الإرهابية التي شنتها حماس ضد الجنود والمدنيين في إسرائيل والأراضي الفلسطينية».

وقد تقاسمت حكومة الولايات المتحدة هي الأخرى تلك الرؤية مع إسرائيل، ففي إعلان لوزارة الخزانة الأمريكية في أغسطس ٢٠٠٣م تم وصف ستة من كبار قادة حركة حماس وخمس مؤسسات خيرية بأنها كيانات إرهابية، وأكدت «أن القيادة السياسية لحركة حماس توجّه شبكاتها الإرهابية، كما أنهم يباشرون النشاطات الأخرى». حتى إن تقريراً لهيئة مراقبة حقوق الإنسان قد خلص إلى أن حركة حماس تعمل ككيان واحد مترابط، وأن المسؤولين العسكريين تابعون للقيادة السياسية في حالة حركة حماس؛ وأن هناك أدلة جلية وكثيرة تفيد بأن الجناح العسكري للحركة تابع للجنة القيادة السياسية، والتي تتضمن الشيخ أحمد ياسين، والذي يُعرف بأنه «الزعيم الروحي» للحركة، وعبد العزيز الرنتيسي، ومحمود الزهار. وياسين نفسه مثل صلاح شحاده المؤسس والقائد لكتائب عز الدين القسام؛ قد اعترفا في تصريحات علنية أن الجناح العسكري يطبق السياسات التي يضعها له الجناح السياسي.

وباختصار؛ فإن أشد المراقبين لحركة حماس قد توصلوا إلى النتيجة نفسها، وهي الحقيقة التي اعترف بها قادة الحركة أنفسهم. كما أن منظمات الرعاية الاجتماعية التابعة لحركة حماس –والتي يدعمها عدد لا حصر له من المؤسسات الخيرية– تتبع تلقائياً «القادة السياسيين».

ولكن بعض المراقبين قالوا: إن تلك الحالات لا تؤكد وجود علاقة لتلك المؤسسات الخيرية بالحملات الإرهابية التي سمح بها أولئك القادة السياسيون، فإن مجرد وجود تلك المؤسسات يستدعي في بعض الحالات تصنيف حركة حماس بأنها منظمة رعاية اجتماعية، وليست منظمة إرهابية. ولذلك كتب محرر بريد القراء في واشنطون بوست في عموده موضحاً ذلك، قائلاً : «ما دامت حركة حماس هي «حركة قومية» مرتبطة بـ «بعض الأعمال الاجتماعية»؛ فإن الذين يرتكبون الجرائم الانتحارية الفلسطينية والهجمات الأخرى يجب أن يُوصفوا في الصحافة بأنهم «عسكريون» أو

«مسلحون»، وليسوا «إرهابيين» من تنظيم القاعدة». في حين كتب «جلوب» محرر جريدة بوسطن الشيء نفسه، قائلاً بأن «وصف حماس على سبيل المثال على أنها منظمة إرهابية؛ يعني أن نتجاهل بقية أدوارها المتشابكة والكبيرة في دراما الشرق الأوسط».

ولكشف حقيقة تلك الافتراضات الباطلة؛ فمن الضروري أن نفضح بصورة كاملة ما تسمّيه حماس «الدعوة» إلى الإسلام، والتي تنشر بين المسلمين الفلسطينيين بهدف تجنيدهم وتحريكهم، ربما يكون هذا صعباً في بعض الحالات، وذلك بسبب ما وصفه مسؤول أمريكي مؤخراً بأن «حركة حماس لها بنية غير مترابطة، فبعض عناصرها يعملون بصورة سرية، وآخرون يعملون بصورة علنية من خلال المساجد ومؤسسات الخدمات الاجتماعية لتجنيد الأعضاء الجدد، وجمع التبرعات، وتنظيم النشاطات، وتوزيع الدعايات التحريضية».

ولكن على رغم ذلك؛ فهناك أدلة كافية على دور المؤسسات الاجتماعية لحركة حماس في النشاطات الإرهابية التي يديرها ويوجهها قادة حماس وزعماؤها، فبداخل الأراضي الفلسطينية تعمل مجموعات المساجد والمدارس ودور الأيتام والمعسكرات الصيفية والاتحادات الرياضية كلها كأجزاء متكاملة لذلك الجهاز الكبير، فهم يعملون على الإثارة والتهييج والتجنيد، ويمدون بالدعم اللوجستي والإداري والحركي لتهريب الأسلحة والاستطلاع والاستكشاف وللعمليات الانتحارية، وهم يقدمون مهام عمل يومية لقادة الميادين، ويترسون على القادة الهاربين، بل إنهم يُشركون الأطفال الصغار لكي يطمحوا أن يكونوا شهداء.

إن مسجد الجهاد في الخليل لديه فريق لكرة القدم، ولكنه لا يشتهر بمهارته في كرة القدم؛ لأن لديه سبباً آخر مقنعاً للشهرة، فهذا الفريق وحده أنتج العديد من إرهابيي حماس المسؤولين عن سلسلة من الهجمات التي شنّوها في الشهور الستة الأولى في عام ٢٠٠٣م، خمس منها نفّذها أعضاء الفريق. وقميص الفريق يحمل صورة يد ممسكة بفأس ومنقوش عليها «استعدوا للعدو وجاهدوا الاحتلال». وهناك فرق رياضية أخرى اشتهرت بأنها كانت الأرضية التي خرج منها ستة من المفجرين الانتحاريين المختلفين.

وفرق كرة القدم الانتحارية تمثل نقطة حاسمة بشأن شبكة حماس للمؤسسات الاجتماعية، فهم يمدونهم بشبكات مثالية للدعم اللوجستي، وبسبب طبيعتها فإن تلك المؤسسات تعمل بانفتاح وعلانية، والعديد من المنتفعين منها انتهوا ليكونون داعمين لعمليات حركة حماس بعلم وطاعة، في الوقت الذي يقوم بها آخرون بلا وعي نتيجة شعور بإلزام عليهم بسبب الخدمات الخيرية التي يتلقونها من حركة حماس.

واللجان الخيرية والحلقات في المساجد واتحادات الطلاب والأندية الرياضية والمنظمات الأخرى التي تديرها حركة حماس؛ كلها تعمل على أنها أماكن لتجنيد أفراد جدد من الناشطين لحركة حماس من الشباب الفلسطيني ليتخذوا مواقعهم في «دعوة» حماس، في دورات للتدريب على الإرهاب في سوريا وإيران، أو لشنّ هجمات انتحارية أو هجمات إرهابية أخرى. وفي الواقع إن خلايا حركة حماس في الضفة الغربية تعتمد بصفة أساسية على الفلسطينيين غير التابعين لكتائب عز الدين القسام في الدعم اللوجستي والعملياتي حتى في قيادة المفجرين الانتحاريين إلى أهدافهم.

والأمثلة على ذلك كثيرة للغاية، وقد حدث ذلك في لجان الزكاة، فقد قام أحمد سلطنة ـ وهو صانع قنابل من جنين في إحدى تلك اللجان ـ بتجنيد شباب صغير السن يعملون للّجنة في حركة حماس. وقد حدث ذلك في المستشفيات، فقد عُرف عن حماس استخدامها للمستشفيات التي تدعمها في تأمين المتطوعين والإمدادات الطبية والمواد الكيميائية. وفي إحدى تلك الحالات قامت حركة حماس بتجنيد مصطفى أمجد، وهو طبيب في مستشفى الجزيرة بجنين للمساعدة في تسريب مفجرين انتحاريين إلى داخل إسرائيل من

منطقة جنين، وبعد القبض عليه في يوليو ٢٠٠٢م اعترف أمجد بمساعدة إرهابيي حماس على الدخول إلى إسرائيل في الوقت الذي كان يوصّل أدوية في أثناء تأديته لوظيفته.

وقد حدث ذلك في المدارس حيث قامت حماس بدفن شحنات من الأسلحة والمتفجرات تحت ملعب حضانة تابعة لها، وفي إحدى الحالات قام أحد ملاك المباني في نابلس بتأجير شقة إلى شخص زعم أنه مدرّس في مدرسة، وفي الواقع ما كان ذلك المدرس إلا صانع قنابل هارب تابع لحركة حماس، والذي استخدم تلك الشقة؛ لأنها مخبأ آمن وصالح لتصنيع القنابل. وقد اتضحت هويته عندما انفجرت إحدى القنابل التي كان يصنعها بطريق الخطأ؛ مما أدى إلى تدمير الشقة ومقتل ذلك الشخص.

بل إن ذلك قد حدث في المكتبات أيضاً ، فعلى سبيل المثال وفي إحدى المرات كان قادة حماس في حاجة ماسة إلى مكان لتطبع فيه منشورات حماس (تبنِّيها مسؤولية الهجمات، ورسائل سياسية، ودعايات) والتي يتلقونها من خلايا الضفة الغربية التي تقوم بتصميمها. وقد روى ذلك أحد قادة حماس بنفسه وهو قائد خلية حماس في غزة، ووصف عملية طبع تلك المواد «في مكتبة في شارع عمر المواناوي بجوار محكمة الاستئناف الفلسطينية عن طريق زميل اسمه نظيم، والذي يعمل حانوتياً كغطاء لنشطاته التابعة لحركة حماس». وقد أثنت حركة حماس على دخولها لتلك المكتبة والخدمات التي قدَّمها نظيم، والتي قام بها في المكتبة، «فلقد ساعدناه بشراء الكتب بمئات الدينارات» للمكتبة، «واشترينا آلة تصوير بأربعة آلاف شيكل إسرائيلي، وأظهرنا أننا اشتريناها للمكتبة».

وفي وقت مبكر يصل إلى عام ١٩٩٦م؛ اعتبرت السلطات الإسرائيلية أن شبكات الدعم اللوجستي لحركة حماس تُعد بنية داعمة مهمة وحاسمة لتحريك هجمات حماس، وفي أعقاب سلسلة من الهجمات الانتحارية في فبراير ـ مارس ١٩٩٦م، قال رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك شيمعون بيريز في الكنيسيت الإسرائيلي: «لقد أنشأت حركة حماس مؤسسات خيرية للتمويه والتغطية على طبيعتها الحقيقية، وهذه المؤسسات الخيرية تجمع التبرعات من الخارج ظاهرياً على أنها تعين الأيتام، ولكنهم في حقيقة الأمر يستخدمون تلك التبرعات لشراء المتفجرات».

والدور اللوجستي «للدعوة» في الهجمات منذ عام ١٩٩٦م كان من أكثر الأمثلة المتاحة توثيقاً في المصادر التي كشف عنها مؤخراً ، فقد اعترف الزعيم العسكري لحركة حماس حسن سلامة بالدعم الذي تلقاه من الحركات المعاونة لحماس؛ «بدءاً من الاتصالات إلى التجنيد إلى تحديد الأهداف، وكل تلك المسائل»، وبعد تسلله إلى إسرائيل من غزة قام معاونو حركة حماس بتسريب حسن سلامة عبر القطاع الأوسط الإسرائيلي إلى الضفة الغربية، واستطاعوا تفادي نقاط التفتيش الإسرائيلية، وكانوا يتنقلون من بلدة إلى أخرى في الضفة الغربية قبل أن يصلوا إلى القدس.

وطبقاً لاعترافات سلامة؛ فإن مسؤولي حماس أمدوه بمنازل آمنة للاختباء، ومستكشفين لتعرُّف الأهداف، ومتطوعين للعثور على مفجّرين انتحاريين.

وقد أتى المسؤولون من جامعات الضفة الغربية ومن المدارس الصناعية، ومن المخابئ الآمنة التي تشمل منازل خاصة ومن أحد مساجد رام الله، كما حدث ذات مرة حيث قابل حسن سلامة أحد المفجّرين الانتحاريين المفترضين للموافقة النهائية وتعيين المهام.

والعمليات اللوجستية لحماس دفعت ماجد أبو وردة أحد المفجرين الانتحاريين إلى أحد المنازل الآمنة في القدس، حيث قام آخرون بحلق لحيته وألبسوه لكي يبدو مثل الإسرائيليين. وفي الصباح التالي استقل أبو وردة الحافلة رقم ١٨ في طريق (القدس ـ رفح) وفجّر نفسه؛ مما أدى إلى مصرع عشرين مدنياً ، بما فيهم ثلاثة أمريكيين، وجرح عشرة آخرين بينهم أمريكي آخر.

واليوم يدعو قادة حماس صراحة إلى دعم المدنيين

للإرهابيين المطلوبين من السلطة الفلسطينية، وفي أغسطس ٢٠٠٣م حثَّ زعيم حركة حماس عبد العزيز الرنتيسي المواطنين الفلسطينيين العاديين على مساعدة الهاربين من الحركة، وكتب أن «حماية هؤلاء المقاتلين وتوفير الدعم لهم هو جزء من ديننا، وجزء من جهادنا المقدس».

ويقوم مسؤولو حركة حماس بعمل يومي دائم فيما يتعلق بالعمل في «الدعوة»، والتي توفِّر كلاً من المرتبات ليعيش عليها أتباع الحركة، والتغطية للتخطيط وشن الهجمات الإرهابية. وبالإضافة إلى ذلك فإن وضع مسؤولي عمليات عسكرية قساة في أهم وظائف الدعوة، وبخاصة في لجان الزكاة، يسهِّل من قدرة المنظمة على جمع التبرعات من المتبرعين ومنظمات الخدمات الاجتماعية وتوصيلها.

وطبقاً لتقرير نشرته المباحث الفيدرالية الأمريكية عن مؤسسة «الأرض المقدسة»؛ فإن الجمعيات الخيرية التابعة لحماس تمولها الكثير من لجان الزكاة، واللجان الممولة «تتحكم فيها حركة حماس، كما اكتشف محللو الحكومة الإسرائيلية أن نشطاء حماس تم انتخابهم أو تعيينهم في مواقع قيادية بارزة في لجان الزكاة تلك».

وقادة حماس الاجتماعيون الذين يديرون تلك المنظمات في الضفة الغربية وقطاع غزة؛ عادة ما تكون لهم صلات وثيقة بخلايا إرهابية، أو ربما يكونون أعضاء حاليين أو سابقين في مثل تلك الخلايا، **ولنأخذ تلك الأمثلة التي أوردها تقرير المباحث الفيدرالية الأمريكية:**

* فاضل محمد صلاح حمدان، عضو في لجنة الزكاة برام الله، «متورط بصورة مباشرة في التخطيط للهجمات الانتحارية، كما أنه كان مسؤولاً عن الإعداد الروحي والمعنوي لأولئك الذين سيقومون بالهجمات الانتحارية؛ بما فيهم الهجمات على ماهاني يهودا في يوليو ١٩٩٧م».

* أحمد سالم أحمد سلطنة، رئيس لجنة الزكاة بجنين، كان متورطاً في نقل مواد صنع المتفجرات للإعداد لتفجيرها عام ١٩٩٢م، وشارك في تفجير سيارة مفخخة عام ١٩٩٣م.

* خليل علي راشد الراشد عضو مساعد لمؤسسة رعاية الأيتام في بيت لحم، عُرف عنه إيواء ومساعدة هاربي حماس، بمن فيهم صانع القنابل لحركة حماس محيي الدين الشريف وحسن سلامة، والأخير قائد سلسلة من التفجيرات الانتحارية في حافلات إسرائيلية في الفترة ما بين فبراير ومارس ١٩٩٦م.

* نور الدين كمال أسد كان مسؤولاً عن حسابات لجنة الزكاة في جنين، وقد سُجن من يوليو إلى ديسمبر ١٩٩٤م بسبب «مساعدته واحداً من المفجِّرين الانتحاريين في الهجمات الإرهابية عام ١٩٩٤م ضد حافلة إسرائيلية في العفولة»، ومرة ثانية من يناير ١٩٩٥م وحتى يناير ١٩٩٦م «بسبب قيادته لنشاطات حركة حماس».

* ناصر خالد إبراهيم جرار، عضو آخر في لجنة الزكاة بجنين، تم اعتقاله لمدة ثلاثة أشهر في أبريل ١٩٩٤م «بسبب تجنيده للشباب الفلسطيني للانضمام إلى الجناح الإرهابي لحركة حماس»، ومرة ثانية في يناير ١٩٩٨م «بسبب صلاته بأحد المفجرين الانتحاريين لعملية إرهابية عام ١٩٩٤م ضد حافلة إسرائيلية في العفولة، ومساعدته لمسؤول آخر من حركة حماس».

* عبد الجابر محمد أحمد جرار، أيضاً عضو في لجنة الزكاة بجنين، قبض عليه في مايو ١٩٩٣م «بسبب نقله أسلحة إلى مجندي حركة حماس، وأدار الكثير من العمليات الإرهابية».

* فواز حمدان، ناشط في كل من لجنة الزكاة بجنين وفي مستشفى الغازي بجنين والتي تمولها حركة حماس، «اعتقل بسبب نشاطاته المتعلقة بحركة حماس، والتي شملت مساعدة هاربين وتمويل شراء أسلحة».

* عدنان عبد الحافظ مصباح مسودة، نائب رئيس مجلس إدارة لجنة الزكاة «المجتمع الإسلامي الخيري في الخليل»، اعتقل عدة أشهر عام ١٩٨٩م ثم مرة ثانية في عام ١٩٩٤م «بسبب تورطه في نشاطات

حماس». وطبقاً لحكومة إسرائيل؛ فإن «عدنان عضو في القيادة الرئيسية لحركة حماس في الخليل، وله صلات بالنشاطات الإرهابية لحركة حماس ضد المستوطنين». ولذا تم إدراج عدنان من بين قادة حماس والجهاد الإسلامي الذين تم ترحيلهم إلى لبنان عام ١٩٩٢م.

كما قامت حماس بشراء دعم أولئك الذين يستفيدون من هبات الجماعة، وقد أشار أحمد ياسين نفسه ذات مرة بفخر: «إننا لا نذهب للبحث عن الناس، ولكنهم يأتون إلينا»، وعندما كان يستشهد بالعديد من الأمثلة للناس الذين يجندهم الدعم المادي لحركة حماس تحدَّث ياسين عن عائلة من عشرة أفراد تعيش في غرفة واحدة: «نحن نعطيهم ١٢٠٠ شيكل (٣٠٠ دولار)، وفي بعض الأحيان جوالاً من الدقيق، أو على الأقل أجرة السيارة التي تقلهم إلى منزلهم» لزيارة الشيخ ياسين. وقد أخبرت -وهي أم لعشرة أطفال وتتلقى مساعدات حركة حماس- أحد الصحافيين قائلة: «كل ما نعرفه هو أنهم [حماس] هم الذين يجلبون إلينا تلك الخيرات».

وبكلمات أحد مسؤولي جيش الدفاع الإسرائيلي الذي قال: «في الأراضي الفلسطينية لا يوجد شيء بلا مقابل، فأولئك الذين يتلقون المساعدات من الجمعيات الإسلامية يدفعون ثمن ذلك بتأييدهم لحركة حماس». والمتلقون لتلك المساعدات يعلمون جيداً أنهم يجب ألا يسألوا أسئلة عندما يُطلب منهم عمل شيء من نشطاء الدعوة التابعة لحركة حماس.

والفلسطينيون المعتمدون على المؤسسات الخيرية التابعة لحماس يسمحون بجعل منازلهم مخابئ لهاربي حركة حماس، والذين يتنقلون من مكان إلى مكان ليتجنبوا الاعتقال، فهم يساعدون حركة حماس بإيواء الهاربين، ويعملون موصِّلين للأموال والسلاح، وتخزين المتفجرات وصيانتها، وأكثر من ذلك. وحماس تجند الفلسطينيين الذين لا تحوم حولهم الشبهات لعمليات غسيل الأموال وتحويلها بدون علم نيابةً عن الحركة.

إبراهيم اليزوري عضو أساسي في تأسيس حركة حماس؛ عرض هذا الوصف لكل الفلسفات المتعلقة بإعطاء الزكاة، كالآتي: كل أحد يعلم أن حركة المقاومة الإسلامية «حماس» هي حركة جهاد فلسطينية، وتطمح لتحرير كامل فلسطين من البحر [المتوسط] إلى النهر [الأردن]، من الشمال إلى الجنوب، من الاحتلال الإسرائيلي المستبد، وأن تلك هي مهمتها الرئيسة. والعمل الاجتماعي هدفه هو دعم هذا الهدف، ويعتبر جزءاً من استراتيجية حركة حماس. وحركة حماس تهتم بأفرادها وعناصرها، وبخاصة أولئك الذين يقومون بالجهاد المبارك ضد قوات الاحتلال الإسرائيلي البغيض؛ ما داموا يتعرضون للاعتقال أو الشهادة.

كما أن الحركة تعتني بعائلات وأطفال الشهداء، وتمدهم بالدعم المادي والمعنوي بقدر ما تستطيع، وهذه هي واحدة من أهم الحقائق الأساسية لشبكة العمل الإسلامي، وهي بذلك تمثل واجباتهم نحو المجتمع المسلم، فالحركة تمدهم بتلك المساعدات من خلال الدعم والمساعدات التي تعطيها إلى لجنة الزكاة والرابطة الإسلامية والمؤسسات الأخرى في قطاع غزة، وعطايا حماس تحدد بشكل كبير عن طريق العائد الذي يعود عليها، وعن طريقه تربط كمية المساعدات التي تمنحها بقدر ما تحظى بذلك الدعم وبأقصى ما تستطيع شراءه به.

وطبقاً لمؤسس حركة حماس الشيخ أحمد ياسين؛ فإن الحركة تدفع ما بين ٢ إلى ٣ ملايين دولار شهرياً إلى عائلات المفجّرين الانتحاريين الفلسطينيين، «الشهداء» الذين يُقتلون في الهجمات على إسرائيل، وإلى المعتقلين في السجون الإسرائيلية. وطبقاً للمباحث الفيدرالية الأمريكية؛ فإن «الأدلة تشير بصورة مؤكدة إلى أن مؤسسة الأرض المقدسة قد أعطت دعماً مادياً كبيراً لعائلات المفجّرين الانتحاريين التابعين لحركة حماس، إضافة إلى الفلسطينيين الذين يتبعون حركة حماس». وبإمدادهم بتلك الإعانات التي تدفع إلى عائلات أعضاء حركة حماس؛ تضيف المباحث

الفيدرالية أن «حماس تضمن تدفقاً مستمراً من المتطوعين الانتحاريين، وتدعم وتؤسس البنية التحتية للإرهابيين المعتمدة بصورة كبيرة على الدعم الأخلاقي للشعب الفلسطيني».

والأفراد التابعون لحركة حماس يتلقون مساعدات أكثر من أولئك غير المنضمين للمنظمة، في حين أن المرتبطين بنشاطات إرهابية يتلقون المزيد والمزيد. وقد أشار تقرير للحكومة الإسرائيلية إلى أن المنظمات الخيرية التابعة لحركة حماس تعطي الأولوية لأولئك القريبين من الحركة، وتؤكد أنهم يتلقون دعماً مادياً زائداً . وطبقاً لذلك التقرير؛ فإن عائلات نشطاء حماس الذين يُقتلون أو يُجرحون في أثناء شنّ هجمات إرهابية، أو أولئك الذين يُعتقلون بسبب تورطهم في مثل تلك الهجمات؛ «يتلقون منحة مبدئية ثابتة تتراوح ما بين ٥٠٠ إلى ٥٠٠٠ دولار، إضافة إلى إعانات شهرية تصل إلى ١٠٠ دولار»؛ لذا فإن «تلك العائلات التابعة لإرهابيي حماس عادة ما تتلقى أموالاً أكثر من أولئك الذين من غير إرهابيي الحركة».

وتم تدعيم تلك النتائج بوثائق تمت مصادرتها في حملة ١٩٩٥م على مؤسسة الأرض المقدسة وعلى مكاتبها في بيت حانون خارج القدس، فقد حصلت القوات الإسرائيلية على تقارير وسجلات مالية لأموال تم تحويلها من مؤسسة الأرض المقدسة إلى لجنة المساعدات الإسلامية (وكالة الإغاثة الإسلامية IRA) وقوائم لأشخاص تدعمهم بتلك الأموال. وقد كشف محللو تلك المواد أن الأشخاص غير التابعين للحركة يتلقون مرتبات شهرية أقل نسبياً .

وفي المقابل؛ فإن عائلات إرهابيي حماس الذين يُقتلون أو يُعتقلون في أثناء العمليات الإرهابية التي يشنونها يتلقون مخصصات أعلى، وتلك الأمثلة تشمل عائلة ياسر حجاج، «وهو ناشط لحركة حماس، يقضي عقوبة السجن مدى الحياة بسبب وضعه شحنة متفجرة في أحد سواحل تل أبيب في ٢٨ يوليو ١٩٩٠م، وقتل سائحاً يهودياً من كندا» . وأخو رائد زكارنه، وهو إرهابي من حركة حماس شن تفجيراً انتحارياً في العفولة في أبريل ١٩٩٤م. وعائلة سليمان إيدان الذي قُتل في هجوم بسيارة مفخخة في بيت إيل في أكتوبر ١٩٩٣م.

وتم العثور على أدلة متشابهة في أثناء عمليات البحث في مكاتب وكالة الإغاثة الإسلامية في الناصرية في ٢٧ يوليو ١٩٩٥م و٨ نوفمبر ١٩٩٥م. وقد كشفت الوثائق التي تم الاستحواذ عليها أن «وكالة الإغاثة الإسلامية نقلت أموالاً إلى عائلة من نشطاء حماس الذين شنوا عدة عمليات إرهابية؛ بما في ذلك خطف وقتل المدنيين وشرطي وجندي، إضافة إلى عائلات أخرى»، وعائلات سجناء حماس ومهجريهم وإرهابييهم الذين قتلوا في أثناء الهجمات. وطبقاً لوثائق الوكالة؛ فإنها قامت بدفع رواتب إلى عشرة من ناشطي حماس في الضفة الغربية الذين تم سجنهم أو تهجيرهم في الماضي، وكانوا يعملون ممثلين للوكالة. وكشف المحققون طلبات من أفراد يريدون دعماً مادياً لعائلات «الذين سقطوا»، والتي تعطي تفصيلات عن الهجمات التي قتل فيها الإرهابيين ونشاطاتهم السابقة في حركة حماس، وأوصاف للظروف الخاصة التي تعيش فيها عائلات أولئك «الذين سقطوا».

وقد أشار وزير الخارجية الأمريكية كولن باول إلى الطبيعة المراوغة لتلك المنظمات الخيرية؛ قائلاً : «أعتقد أن القيام بتحريض وتشجيع المفجّرين الانتحاريين بأي طريقة هو مشكلة حقيقية».

وفي إطار جهودها لأسلمة الصراع الفلسطيني القومي؛ تقوم حركة حماس باستثمار مصادر كبيرة من أجل تشكيل الثقافة الفلسطينية، وقد أشار خبراء إلى أن إعطاء القضية الفلسطينية الصبغة الإسلامية هو جزء من جهود حركة حماس «لربط الصراع الفلسطيني الخاص بالدائرة الإسلامية الأوسع في العالم الإسلامي». ولتحقيق تلك الغاية؛ فإن المؤسسات الخيرية ومؤسسات الخدمات الاجتماعية

والمستشفيات والمدارس والمساجد التابعة لحركة حماس تقوم بإغراء المفجّرين الانتحاريين بصورة مفتوحة، وتعلّمهم الكراهية، وتحرّضهم - حتى الصغار والأشخاص الأكثر حساسية واستجابة من الفلسطينيين - على العنف.

وعلى سبيل المثال في أثناء احتفالية نهاية العام في إحدى دور الحضانة التي تديرها الجمعية الإسلامية، وهي جمعية خيرية إسلامية تابعة لحركة حماس يديرها الشيخ أحمد باهر، كان هناك ١٦٠٠ طفل من أطفال الحضانة يرتدون أزياء عسكرية، ويحملون بنادق رمزية، وصوّرت طفلة عمرها خمس سنوات دور التي قامت بهجمات على إسرائيليين بغمسها يديها في طلاء أحمر، لكي تحاكي الأيدي الملطخة بالدماء التي عرضها فلسطينيون بتفاخر بعدما قتلت الجماهير الغاضبة اثنين من الإسرائيليين في رام الله.

وتحويل الشباب الفلسطيني إلى المذهب الراديكالي الإسلامي في برامج حركة حماس في أوائل طفولتهم؛ تم توثيقه بصورة واسعة. ولنأخذ المقولة التي أوردتها جريدة «يو إس أيه توداي»: «في إحدى دور الحضانة التي تديرها حركة حماس، كان هناك عبارات مكتوبة على الحائط تقول: «أطفال تلك الحضانة هم شهداء الغد»، في حين كانت هناك عبارات في قاعات جامعة النجاح في الضفة الغربية والجامعة الإسلامية في غزة تقول: «إسرائيل لديها قنبلة نووية، ولكننا لدينا قنابل بشرية»، وفي مدرسة إسلامية في مدينة غزة والتي تديرها حركة حماس، قال الطالب الفلسطيني أحمد ١١ سنة: «سوف أجعل من جسدي قنبلة سوف تفجر أجساد الصهاينة، أحفاد القردة والخنازير... سوف أمزق أشلاءهم إلى قطع صغيرة، وسوف أجعلهم يتألمون أكثر مما تألم أحد من قبل»، ويصيح زملاؤه في الفصل قائلين: «الله أكبر!»، ثم يصيح أساتذته «لتهنأ بالحور العين»، في إشارة إلى إحدى مميزات الشهيد في الجنة، حتى الناظر كان يحني رأسه موافقة على ذلك.

وحملة حماس للتحريض وتحويل الفلسطينيين إلى الأصولية تستمر خلال المسار الأكاديمي للطالب الفلسطيني، وقد قامت حركة الطلاب الإسلامية التابعة لحركة حماس في منطقة بيت لحم بتوزيع كروت تعليمية تحمل صورة أحد مفجري حماس الانتحاريين، وصورة آخرين قُتلوا بعد شنهم هجمات إرهابية، وتشجيع الشباب الفلسطيني على اتباع خطاهم. والمواد التعليمية الأخرى التي ينتجها ناشطو الدعوة التابعون لحركة حماس وتوزعها المؤسسات الخيرية التابعة لحماس؛ تشمل كروتاً وصوراً تُباع نظير ثمن، وتحمل صورة المفجرين الانتحاريين لحركتي حماس والجهاد الإسلامي، وفيها كتابات إنشادية باللغة العربية مثل: «أمّاه لا تبكي عليّ إذا سقطت ممدداً، أمّاه سوف يحين وقت مغادرتي لتلك الدنيا سريعاً».

وفي مخيم «الفوار» للاجئين، هناك أطفال يتاجرون بكروت وسلاسل مفاتيح وميداليات تحمل صور المفجرين الانتحاريين، ومجموعة إنشاد تسمى «الشهداء» تقوم بإنشاد مدائح للشهداء. والمنتجات الأخرى مثل الكتيبات والملصقات وجداول المحاضرات المطبوعة؛ كلها تحمل صور كريم نمر مفارجه، وهو ناشط من نشطاء كتائب عز الدين القسام، وعليها كتابات «الشهداء إلى جوار الله» و«يسعى نورهم بين أيديهم».

وطبقاً للشيخ باهر؛ فإن المعسكر الصيفي لحركة حماس قد نجح بصفة خاصة في تعليم الدين والمواد العلمية للشباب على حد سواء، وقد أوضح باهر بأنه يقوم بتعليم الأطفال التاريخ الإسلامي، ويحيطه بصور للمفجرين الانتحاريين لحركة حماس، وهذا المعسكر يزرع «بذور الكراهية ضد إسرائيل».

وإحاطة الفلسطينيين برسائل تمجّد حركة حماس موجودة في كل مدارس حماس ومعسكراتها ومنظماتها التي تقدم الخدمات الاجتماعية، فعلى سبيل المثال، فإن حجرة الانتظار في مستشفى جنين مملوءة بصور إرهابيي حركات حماس والجهاد الإسلامي وكتائب شهداء الأقصى؛ بما في ذلك صور مفجرين انتحاريين

وأولئك الذين أرسلوهم للجهاد.

وفي أحد التقارير الصحفية عن الجمعية الخيرية الإسلامية وصفت خط تجميع من العمال الفلسطينيين من الرجال والشباب في أحد المصانع، والذين يقومون بتعبئة المواد الغذائية على إيقاع أناشيد مؤثرة تمجد حركة حماس، وكانت الأناشيد تقول: «الجهاد ينادي»، ويتعهد النشيد بـ «أننا سوف نستمر في المقاومة وثورة حماس».

والأطفال الذين يشتركون في مثل تلك البيئة الاجتماعية يُصبحون مجندين تلقائيين ومتطوعين مجيبين لتلك النداءات. وفي إحدى الحالات؛ قام القائد العسكري في حركة حماس محمد زكارنه بتجنيد صبي فلسطيني يبلغ من العمر ١٢ عاماً لنقل شحنة صغيرة من الأسلحة إلى بعض إرهابيي حركة حماس عبر الضفة الغربية؛ من أجل قنص الإسرائيليين الذين يتنقلون في طرق الضفة الغربية، ولشن «هجمات إرهابية فدائية» يستهدفون بها مستوطنة مائيل أدوميم في الضفة الغربية. والصبي في أثناء شهادته لقوات الشرطة لم يعبِّر عن ندم، وقال صراحة: «أنا لا قلب لديّ؛ مثلما أن اليهود لا قلب لهم»، وأضاف: «أنا أكره اليهود، وفي أي فرصة تسنح لي سوف أقتلهم، أنا شهيد». وفي جلسة الاستماع لمحاكمة الصبي علَّق القاضي قائلاً : «مع تجميع كل تلك الملابسات؛ فإن هناك صورة ظاهرة في قلب الصبي أثر عليه فيها الكبار الذين كانوا يحيطون به؛ أنشأت في قلبه كُرهاً قَادَه إلى القيام بتحركات من بين أخطر التحركات التي نص عليها القانون».

وطبقاً لتقارير صحافية؛ فإن الآباء الفلسطينيين المعتدلين يجدون أنه من الصعب جداً حماية أطفالهم من تجنيد حماس لهم، وجعلهم مفجّرين انتحاريين في المستقبل. وتذكر إحدى الأمهات كيف أن سلوك ابنها تغيَّر عندما بدأ في الذهاب إلى المسجد بانتظام: «في البداية اعتقدت أن ذلك طبيعياً عندما بدأ ابني محمد ١٨ سنة في الذهاب إلى المسجد بانتظام، ولكن عندما اكتشفت أنه كان يشاهد أفلاماً عن الهجمات الانتحارية شعرت بالقلق... فقد كان ابني يذهب إلى المسجد في أوقات متأخرة من الليل وفي الصباح الباكر؛ مما زاد من مخاوفنا... ثم تغير سلوكه بعد ذلك، فقد أصبح انطوائياً ؛ مما جعل والده يطلب مني البحث في حجرته ومراقبة مجيئه وذهابه... لدرجة إننا أغلقنا الأبواب لمنعه من الخروج... ثم اكتشفنا بعد ذلك أن المسؤولين في المسجد كانوا من أعضاء حركة حماس، والذين كانوا يُعلّمون الأطفال الجهاد، ويعرضون لهم أفلاماً وثائقية حول التفجيرات الانتحارية».

وقد حكى والد أحد الذين جندتهم حركة حماس، وهو موسى زيادة ١٥ عاماً قصة مشابهة، ففي البدء كان معجباً بزيادة إيمان ابنه، ولم يكن أبوه يدرك أن حماس بدأت في تحويل ابنه إلى التيار الأصولي عندما كان في العاشرة من العمر وكان يكنس المسجد. وقد أخبر موسى الصحافيين بعد ذلك أن حركة حماس: «علمتني أشياء عن أبطال الإسلام الذين قُتلوا وأصبحوا شهداء، وكيف أنهم الآن في الجنة بجوار عرش الله... وعلمت أيضاً أن اليهود ليس لديهم حق في البقاء على تلك الأرض التي تنتمي إلى المسلمين».

وقد عززت نتائج تلك الاستطلاعات الروايات الرمزية بكل جوانبها، وتدل على نجاح حركة حماس في جهودها لتحويل الفلسطينيين إلى المذهب الأصولي الراديكالي.

وطبقاً لاستطلاع رأي أجرته الجامعة الإسلامية في غزة ـ والتي ترتبط بحركة حماس ـ في إبريل ٢٠٠١م أن ٤٩٪ من الأطفال ما بين التاسعة والسادسة عشرة زعموا أنهم قد اشتركوا في الانتفاضة الفلسطينية، ولكن المفزع هو أن ٧٣٪ منهم عبَّروا عن آمالهم في أن يصبحوا شهداء. وبالفعل؛ فإن السلطة الفلسطينية لديها قلق متزايد من الاختراقات الناجحة لحركة حماس في وزارة التعليم الفلسطينية، وتحويل الحركة الشباب الفلسطيني في المدارس إلى الأصولية. وطبقاً لتقرير استخباراتي للسلطة الفلسطينية؛ فإن «حركة

حماس قد بدأت في تمثيل تهديد خطير على الرؤية السياسية للسلطة الفلسطينية واهتماماتها ووجودها وتأثيرها. وتأثير حركة حماس من خلال مدرسيها في مدارس السلطة الفلسطينية واضح بجلاء».

وقد وصف دفيد أوفهاوسر المستشار العام لوزارة الخزانة الأمريكية والذي تقاعد مؤخراً ، وعضو لجنة التنسيق في مجلس الأمن القومي الأمريكي فيما يتعلق بالتمويل الإرهابي، وصف عملية التفرقة بين الأجنحة العسكرية والخيرية للحركات الإرهابية بأنها «مغالطة» كبيرة، وأكد أن «فكرة وجود جدار ناري بينهما يعارض العقل والمنطق»، وأضاف: لا يوجد أحد يعترض على فكرة بناء مستشفيات أو دور للأيتام أو رعاية الأشخاص المهجرين، ولكن الأناس أنفسهم الذين يحكمون كيف يتم صرف الأموال للمستشفيات هم أنفسهم الذين يحكمون في كيفية وضع المال لقتل الناس، ولا يمكننا أن نخلي مسؤولية أحد تلك الأشياء وأن نحتفل بالأشياء الأخرى التي يقدمونها، فلا تزال تلك أموال دموية.

وقد وافقته وزارة الخارجية: «ما دامت أن حماس مستمرة في الاعتماد على الإرهاب للوصول إلى غاياتها السياسية، فيجب علينا ألا نفرق بين أسلحتها العسكرية والإنسانية؛ ما دامت الأموال التي يتم إعطاؤها إلى أحدهم يمكن أن تدعم الآخر».

وبالنسبة إلى مبادرة سلام مستقبلية؛ يجب على المجتمع الدولي أن يأخذ في اعتباره تلك القاعدة الأساسية، وقد اعترف الرئيس بوش بذلك في دعوته في ٢٥ يونيو ٢٠٠٣م لوجود «تحرك سريع وحاسم ضد جماعات الإرهاب [الفلسطينية] مثل حركة حماس، لقطع تمويلاتها ودعمها». وهذا التعاون على رغم ذلك يظل صعباً بسبب الغطاء الشرعي الذي يوفره العمل الخيري لحركة حماس تغطية على هجماتها الإرهابية.

ويجب ألا يتم إعطاء جماعات الرعاية الاجتماعية الإسلامية حرية في التحرك؛ لأنها تمد بالدعم الإنساني إلى جانب دورها في دعم الإرهاب. وفي المقابل؛ فإن المجتمع الدولي يجب أن يصر على أن الدعم الإنساني للفلسطينيين يجب أن ينفصل عن دعم النشاطات الإرهابية. وإذا لم نفعل ذلك فسوف يكون هذا مثل الاشتراك في حملة حماس لتدمير كل مصالحة مستقبلية إسرائيلية فلسطينية. ويجب أن تقوم دول أوروبا ودول الخليج والدول الأخرى باتخاذ إجراءات صارمة لتقنين وتحديد أيّ المنظمات الخيرية الفلسطينية سوف تتلقى المساعدات الدولية، كما يجب إغلاق المنظمات الشكلية التي تجمع تبرعات لحركة حماس والجماعات الإرهابية الأخرى.

والفلسطينيون يواجهون احتياجات اجتماعية ماسة لم تلبها لهم السلطة الفلسطينية؛ مما يخلق فرصة ثمينة لحماس التي تستغلها بصورة كبيرة. والسماح باستغلال حماس لذلك ليس في مصلحة السلام الإسرائيلي الفلسطيني، ولا في مصلحة المساعدات الإنسانية الفلسطينية. وجماعات العناية الاجتماعية الإسلامية التي تغلف نشاطاتها الخيرية بدعم الإرهاب تقوم بتعكير عملية إعطاء المعونات والأعمال الخيرية؛ مما يجعل العمل أصعب على تلك الجهود الحقيقية التي تحاول أن توفّر ظروفاً أفضل في الضفة الغربية وقطاع غزة.

وإغلاق مراكز الدعوة التابعة لحركة حماس؛ يجب أن يصاحبه جهود تعاونية من المجتمع الدولي للدول المانحة لملء الثغرة والإمداد بالمساعدات الإنسانية المنظمة للفلسطينيين ذوي الحاجات بطريقة لا تدعم الإرهاب، أو تسهّل من هجماتهم، أو تساعد على وجود متطوعين جدد أو تحرض المجتمع.

وقطع تدفق الأموال إلى حركة حماس، واستبدال شبكاتها الاجتماعية الإرهابية بجهود إغاثية دولية ومنظمة؛ أصبحت حاجة ملحة وعاجلة أكثر من كل وقت مضى.